دنيا الأدب

بقلم محمد قدرى لطفى

ليسانسيه فى الآداب

ليست هى دنيانا، فماينبغى أن يكون هذا الأدب منها ، وليست هى عالمنا، فما يجب لهذا الأدب أن يدخل فيه ، وانما هى طبيعة الأدب تأبى أن يكون من دنيانا فى شىء ، فان أكثر دنيانا قبيح ، وأكثر الأدب جميل ، وعماد دنيانا الحقيقة وعماد دنيا الأدب الخيال ، والعقل فى دنيانا عنصرها الأكبر ، والعاطفة فى دنيا الأدب عنصرها الأول ، والمرء فى دنياه يرى بعينى رأسه ، ويرى فى دنيا الأدب بعين قلبه ، وهو فى الدنيا مادى ، قد يمسك بالزهرة فيقطعها فى غير رحمة إلتماس عبيرها ، فيظل به حتى ينفد ، ثم يلقيها كأن لم تبهره لحظة بجمالها ، ولم تنعشه برهة بأريجها ، وهو فى دنيا الأدب روحى ، إذا أمسك بالزهرة فانما يمسها فى رفق ، وإذا التمس شذاها فانما يفعل فى حذر واحتياط ، حتى إذا أعجبه عبيرها لم يقتطفها ولم يلقها ، وانما تراه يستخلص من عبيرها الطيب بيتاً ينظمه ، أو قصيدة ينشئها ، أو سطوراً يكتبها ، وتراه يغوص فى قرار المعانى ويصعد إلى عنان اللغة ليسجل للخالق حسن الصنعة ودقة الخلق وجمال التكوين ، وتراه يوفى الزهرة حقها من الاعجاب والاطراء ، ويبادلها حسنا بحسن ومتعة بمتعة . والمرء فى دنياه يتكلم فيما يشاء بمايشاء ، وهو فى دنيا أدبه لا يتكلم إلا فيما حرك شعوره وهز عاطفته ، فاذا فعل فبا للفظ المختار وبالمعنى المنتقى ، والمرء فى دنياه حين يتكلم لا يكاد يقع قوله إلا من نفوس قليلة مهما تكثر فلن تخرج عن الحصر ، ولن تفوق العد ، وهو فى دنيا الأدب يتكلم فيلتقى بعواطف الجموع ويضرب على أوتار القلوب ، وقد ينتقل قوله من لغة إلى لغة وينتشر حديثه من لسان إلى لسان ، فيفنى هو وماقال باق على الدهر خالد على الأيام ، وقد يظل المرء فى دنياه من غير صاحب ، وقوله فى دنيا الأدب يلقى الصحاب فى كل مكان ، ويتخذ سميراً فى الجماعات أو خليلاً فى الوحشة ، أو مؤنساً فى الوحدة ، يصادف من كل قلب مبتغاه ، ويلقى عند كل امرئ قبولاً ، ويقع من كل نفس موقع البرء من السقام

ودنيانا محدودة وان ترامت حدودها ، مقيدة وان اتسعت قيودها ، ودنيا الأدب لا تعرف الحد ولا تعرف القيد ، فالأدب يعيش فى كل مكان ويحيا فى كل زمان ، يتناول كل شئ ، وقد يتخذ لنفسه موضوعا من لاشىء ، وليس توخى الجمال فيه ولا التزام أوجه الحسن فى فنونه قيداً له ولا عيباً فى دنياه ، وانما هو الجمال طبيعته وعنصره ، ما أن يفقده حتى يخرج من دائرة الأدب إلى دائرة الكلام البحت والحديث الصرف . فالشعر إن فقد الجمال كان نظما فحسب ، لاهو بالشعر ولا هو بالنثر ، قد وقف بين الصناعتين لايدرى أهو من هذه أم هو من تلك ، والنثر إن فقد طلاء البلاغة لم يكن من الفن فى شئ ، وكما تغلو الأشياء فى دنيانا وترخص ، يغلو الأدب فى دنياه ، وتنحط قيمته تبعا لمقدار الجمال فيه ، وأكثر موازين دنيانا الكم ، وميزان دنيا الأدب الكيف .

على أن دنيا الأدب وان كانت جمالاً كلها فليست نعيما كلها ، وان كانت إعجابا كلها فليست تخلو من العجب ، فقد أقام البؤس فيها إلى جانب الجمال ، وسكنت الفاقة فيها إلى جانب الحسن ، وكثيراً ماتحالفا على غير فكاك ، وتوافقا على غير خلاف ، شأن دنيا الأدب فى ذلك شأن دنيانا ، فانك لتجد فيها الوجه الجميل فى المسكن الذليل ، وغالباً ما يلقاك الشرف الرفيع فى الكوخ الحقير ، وكثيراً ما تحل السعادة حيث ترق الحال ، ويقيم الهناء حيث يحل الفقر .

وكل الأشياء التى نحيا فيها تحيا فينا .

هى حية فى نفسى . . . مدينتى الصغيرة

هى مبعث وحشتى فى هذه الحياة الغريبة .

هى التى تجذبنى اليها وتخيم فوق رأسى فى غربتى كالسحابة السوداء ، وهى مجمع ذكرياتى التى تصطف للقائى فى كل زاوية من زواياها ، وفى كل ثنية من ثناياها

* * *

سأحاول أن أنسى . . . وسيساعدنى الزمان على النسيان ، وأية ذكرى وأية خطرة تستطيع أن تثبت أمام سلطان الأزمان ؟ لكن شاطئك الأزرق الجميل . . شاطئك الذى امتزج دمه بدمى ، وخفق قلبه فى قلبى ، أنّى لى أن أنساه ؟ . .

هو كالقطرة التى تنعكس فيها كل السموات والنجوم . . .

ألا هنيئاً للجالس على شاطئك الأزرق فانه مالك كل شىء ؟

صيداء — منير شعراوى

ودنيا الأدب لا آخرة بعدها ، ولا إمهال فيها ، وإنما يلقى صاحب الأدب فيها حسابه سريعاً فيجزى به أو يعاقب عليه ، فما هو إلا أن يظهر أهل دنياه على ماأتى من عمل فني حتى يتولاه النقاد من قومه بالحساب ، يحاسبونه حسابا فيه يسر حيناً ، وكله عسر أحياناً ، وحساب أهل الأدب على عسره ليس يخلو من عجب ، فلا الخير فيه خير بالاجماع ، ولا الشر فيه شر بالاجماع ، وإنما الخير عند زيد شرٌ لدى عمرو ، والشر يراه هذا خيراً ، والخير فى عرف ذاك شر ، قدتفاوتت الموازين ، وتباينت المكاييل ، وليت شعرى متى يشاء ملائكة النقد أن يكون لدنيا الأدب ميزان يزن به الجميع ، وكيل يكيل به الجميع . فقد خلق الناقدون وكل معه ميزانه ، وكل فى يده كيله ، فاختلفت أحكامهم على العمل الفني الواحد ، وتعددت أقوالهم فى انتاج الأديب الواحد ، ولعل دنيا الأدب لم تظلم صاحب الأدب حين أباحت له حرية الدفاع عن آثاره الأدبية والرد على محاسبيه ، والتماس الحق لجانبه . ومن غريب دنيا الأدب أنها تبيح حساب المرء حياً وميتاً ، فيتناول النقاد سيرته بالتحليل ويتولون حياته بالتمحيص ، ويظهرون الناس على أقواله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وانك لتجد الشاعر أو الناثر قد فارق دنياه منذ قرون ، وأسدلت السنون عليه وعلى قومه حجابا من النسيان ، ومع ذلك فهو فى دنيا الأدب حى مذكور لا يزال النقاد يحاسبونه على شعر قرضه ، أو نثر كتبه ، أو قصة حاك أطرافها ، ولا يكتفون من ذلك بالمئات من المرات .

ومما يحاسب المرء عليه فى دنيا الأدب عدا الأجادة فى الفن أو التقصير فيه ماقد يرتكبه من سرقة لثمار العقول أو نتاج العواطف فينتحل لنفسه ماليس له . غير أن الحساب على هذا الذنب ليس كما ينبغى له من العسر والشدة ، وليس كما يتفق مع خطره من القسوة والقوة ، وإنما هو مباح أو كالمباح حتى خشيت دنيانا هذه الأباحة من دنيا الأدب ، وخافت على أهلها من دعاة الأدب أن يبيحوا فيها ماليس الى إباحته من سبيل ، فأفسحت صدرها لمن يلجأ اليها من دنيا الأدب ، شاكياً ما استحل الغير من ثمرات قريحته ووحى خاطره فحمته بتشريعها ، وأحاطته بسياج من قانونها .

وفى دنيا الأدب من المفارقات العجيبة والسير الطريفة ما لا تتسع له الصحائف ، فكيف يقوى كاتب على دنيا بأكملها يحصى مابها ويعدد مافيها ؟

محمد قدرى لطفى

٨ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ مصطفى السفطى

مصطفى السفطى بن مصطفى الفاكهانى السفطى بن على السفطى ابن احمد شلبى ، نسبة الى سفط القطايا ، ولد بمصر القاهرة حوالى سنة ١٢٥٠ ، وأرسل الى المكتب فى السابعة من سنيه ، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بتجويده فى الأزهر ، ثم شرع فى طلب العلم على شيوخ عصره ، فقرأ الكفراوى على أحد العلماء المبتدئين فى التدريس ، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى ، ولما أعيى عليه أمره ، وتعذّر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته ، ولكنه لم يستفد شيئاً . وكان بجوار داره دار السيد احمد البقلى أحد المدرسين بالمدارس ، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم ، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه ، فأشار عليه بشراء متن الآجرومية وأمره بحفظه ، ثم شرع فى إعرابه له على الطريقة الأزهرية ، فلم يستفد شيئاً أيضا ؛ وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهورى ، فأمره بترك طلب النحو كلية حتى ينسى ما علق بذهنه منه ، ففعل واقتصر على الفقه ، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجورى ، وكان يتفهمه بخلاف النحو ، فمالت نفسه اليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتّوح البيجرمى ، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن القبانى أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور ، وكان يطالعه لاخوانه المبتدئين .

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر ، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة ، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهورى ومعه متن الآجرومية فقط ، وصار الشيخ يقول له اقرأ هذه الجملة ثم تفهّم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشراح ، ففعل ، فتارة كان يخطئ وتارة يصيب ، وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة ؛ وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به ،